د. كاظم نور الدين رئيس هيئة تكريم العطاء المميّز

إفتتاحية العدد

الثقافة أثناء الحرب وبعدها

تلعب الثقافة دورًا حيويًا في حياة الشعوب، سواء في أوقات السلم أو الحرب. وفي فترات النزاعات والحروب، تصبح الثقافة سلاحًا مزدوجًا: فهي من جهة وسيلة للتعبير عن الألم والمقاومة، ومن جهة أخرى أداة لحفظ الهوية وحمايتها من التآكل. أما بعد إنتهاء الحرب، فتتحول إلى جسر لبناء السلام وترميم النسيج الاجتماعي المتضرر. في هذه الإفتتاحية ، سنستعرض دور الثقافة أثناء الحرب وبعدها.

- الثقافة أثناء الحرب

1- التعبير عن المعاناة والمقاومة: في أوقات الحرب، تُعد الثقافة وسيلة تعبير عن المشاعر الجماعية، من آلام الفقدان إلى أمل الانتصار. ويظهر ذلك في الأدب، مثل القصائد التي تعبّر عن المقاومة، والروايات التي توثق فظائع الحرب، وكذلك في الأغاني الشعبية التي تزرع الصمود في قلوب الناس.

2- حفظ الهوية: غالبًا ما تستهدف الحروب هوية الشعوب وثقافتها، سواء بتدمير التراث الثقافي أو فرض ثقافة دخيلة. ومع ذلك، تبقى الثقافة حائط الصد الأول، حيث يسعى المثقفون والفنانون للحفاظ على العادات والتقاليد من الإندثار، وتوثيقها للأجيال القادمة.

3- الإعلام والدعاية: تُستخدم الثقافة أيضًا كوسيلة دعاية أثناء الحروب. تُنتج الأفلام والكتب لتوجيه الرأي العام وتعزيز الروح الوطنية، وهو ما يعكس أهمية الفن والإعلام في تشكيل مسار الحرب نفسيًا ومعنويًا.

- **الثقافة بعد الحرب**

1- إعادة بناء الهوية: بعد انتهاء الحروب، تسعى الشعوب إلى إعادة بناء هويتها الثقافية التي ربما تعرضت للتشويه أو التدمير. فيتم ترميم المعالم التاريخية، وإحياء الفنون التقليدية، وتوثيق التاريخ من وجهة نظر الضحايا.

2- المصالحة وتعزيز السلام: تُستخدم الثقافة كأداة للمصالحة، من خلال الأعمال الفنية والأدبية التي تعكس قيم التسامح والعيش المشترك. فالمهرجانات الثقافية، على سبيل المثال، تجمع بين أطراف النزاع السابقين وتعزز الشعور بالوحدة.

3- الشفاء النفسي والاجتماعي: تساعد الثقافة الناس على معالجة الصدمات النفسية الناتجة عن الحروب. من خلال المسرح والسينما والرسم، فيتمكن الأفراد من التعبير عن تجاربهم الشخصية، مما يساهم في إلتئام الجروح النفسية.

4- التعليم والتوعية: تُستغل الثقافة بعد الحروب لتعليم الأجيال الجديدة تاريخ الصراعات وأسبابها، بهدف تجنب تكرار المآسي. كما تُشجع الفنون والآداب على تعزيز قيم السلام والتعايش.

وهنا نطرح أمثلة من التاريخ

- **الحرب العالمية الثانية: برزت الأدبيات التي توثق معاناة الحرب، مثل مذكرات "آن فرانك"، وساهمت أعمال فنية كالأفلام في إعادة بناء المجتمعات المتضررة.**
- **الحرب الأهلية اللبنانية: كانت الثقافة عنصرًا أساسيًا في توثيق سنوات الحرب، ولاحقًا أداة لتعزيز المصالحة الوطنية.**
- **الحرب في البوسنة: لعبت المهرجانات الثقافية دورًا في إلتئام المجتمع بعد الصراع، حيث أصبحت رمزًا للتنوّع والتسامح.**

بشكل عام الثقافة ليست مجرد عنصر جانبي في حياة الشعوب، بل هي عمق وجودها وهويتها. في أوقات الحرب، تصبح حصنًا منيعًا أمام محاولات الطمس، وفي أوقات السلم، تتحول إلى وسيلة لإعادة البناء والمصالحة. لهذا، من الضروري دعم المبادرات الثقافية

دائمًا، لما لها من دور حاسم في تعزيز القيم الإنسانية وتجاوز الأزمات.فالحرب من حيث هي فعل مؤقت صادم ليس من الضروري أن تكون خاضعة للتعريف السائد في أدبيات دراستها؛ بأنها "نزاع مسلح تبادلي بين دولتين أو أكثر من الكيانات والتحالفات غير المنسجمة"، فالأولى أي الثقافة هي نتاج تراكم للمعرفة والممارسات الحياتية؛ يعود في جوانب منه لمدى زمنى يمتد الى مستقبل بعيد.

هذا وقد لعبت العلوم الإنسانية، بعد رسوخ قدرة أدواتها على الضبط المنهجي، دوراً مهماً في دراسة وتحليل ظاهرة الحرب وفهم دواعيها، فمنذ نشأة الدولة في التاريخ القديم أصبح الجيش أحد أهم مكوناتها حيث أفرزته تحديداً بنية إجتماعية إقتصادية، ومن ثم تتماهى فكرة الحرب في ثقافة موضوعية مكتسبة.

لهذا تشي قراءة التفاعل التاريخي للحرب بأنها نتاج للذهنية المتكونة ثقافياً، سواء كانت في البنية المستقرة في السلطة السياسية للدولة.. وبالمثل أيضا أدوار قاطنيها الاجتماعية والفكرية المؤثرة، التي قد تكون إحدى تبدياتها الجماعات المسكونة باختلافات في مكونها الثقافي، كما في تشكّل جماعات الإرهاب العابرة للدولة القومية والحروب الأهلية.. ويترتب على هذا أهمية دراسة البعد الثقافي لفهم العلاقة بين العنف والحرب.

هذا ويمكن القول بأن الدارس لظاهرة الحرب لا يستطيع بناء إطار نظري محكم وشامل للعلاقة بينها وبين الثقافة، لتنوع الآراء التي تقدمها مدارس العلوم الإنسانية على تعددها، والأيديولوجية المتوارية خلفها أحيانا بالأفكار التي تبرر القواعد الأخلاقية لواقعة الحرب، سواء من الدول أو الجماعات التي تحركها انحيازات تمازج ثقافي، يمكن البناء عليه ربما دون اللجوء لرؤية موضوعية متزنة؛ تغلق هذه الإنحيازات دائرة التفسير والتبرير على إنحراف المفاهيم.

تشتبك الصلة بين الثقافة والحرب بجوانب تحددت تاريخيتها من خلال العلاقة بين العنف المنظّم والتطوّر الاجتماعي، وكثيرا ما كان العنف المنظّم أساسا للتحديث في الأزمنة القديمة، بعد نشأة الجماعة الأكثر تنظيماً التي أنتجتها المجتمعات الزراعية، وحاجتها للدفاع عن مخزونها من الغذاء، والبحث بعد أن تعددت هذه الجماعات عن صيغة تصون وجودها انتهت

إلى نشأة الدولة، التي نبتت في كنفها عاطفيا الروح الوطنية؛ التي أعطت بخصوصية زخمها الثقافي بعداً جديداً للحرب.

أخيراً، يرتبط المشهد المعاصر للعلاقة بين الثقافة والحرب بطبيعة إستدعاء النزاع القائم على العنف لدى التنظيمات الاجتماعية في إطار دائم الحراك لسوسيولوجيا المسرح الدولي، حيث تسعى بعض القوى إلى نبذ غير المنسجمين مع أنماطها الثقافية والأيدولوجية، وليس من الضروري بالطبع أن يقتصر التنظيم الاجتماعي على نموذج الدولة.

واللافت أن الإنفجار الهائل في وسائل الميديا في ظل الفضاءات المفتوحة ووسائل التواصل الاجتماعي التي استشرت أخيراً، فاقم الصراعات على نحو واسع النطاق، نتيجة أدلجة الجماهير، وهذا ما أشار إليه عالم الاجتماع الأميركي "راندال كولينز" قائلا: "لو لم تكن المعارك الكبرى منظمة اجتماعياً على نحو جيد لصارت مستحيلة"،بحيث تعقّد أدوات التنظيمات الاجتماعية المعاصرة وطاقتها على الأدلجة جعلها قادرة على تمرير دواعي الحرب، لدى أفراد في غالبيتهم من غير مستعدين بالفطرة لتبنى العنف.

وهكذا أضحى التحليل الثقافي مع تناميه في ميدان العلوم الإنسانية أحد المرتكزات الأساسية في فهم المتغيرات التي تسود العلاقات في المجتمع الدولي، وغدت علوم كاللأنثربولوجيا وعلم الاجتماع منشغلة بتحليل الأبعاد الثقافية للظواهر السياسية على الساحة الدولية، ومن ثم ما يجري فيها من نزاعات وتجاذبات، تصل في حدها الأقصى إلى الحرب باستخدام السلاح.

لكن **الثقافة بفروعها تبقى فعلاً إنسانياً ضرورياً تحت أي ظرف، وفي كل الأوقات. وفي نظر الكثيرين لا يمكن الرهان على أي دور للثقافة في مجتمع بات يفتقر إلى أبسط ضرورات العيش من مأكل وملبس ومأوى، والإنكباب على الإصدارات الأدبية والفنية الجديدة لا قيمة له في ظل دورات العنف المتتالية، كما أن التعويل على دور ما للأدب والفن في التهيئة لأي تغيير منشود أو المساهمة فيه يبقى غير مطلوب.**

وبالنسبة للمشهد الثقافي الجديد الذي سيتمخض بعد معارك الحرب المستعرة من كل الأطراف، فيُعتقد بأنه لا بد أن يحمل في طياته شكلا جديدا بعيدا عن النمطية.

إن التأثير الأكثر مباشرة هو الخسارة الحقيقية للآثار وغيرها من العناصر التراثية التي تشكل دليلاً على الهوية الثقافية لشعب ما ، مع كل المشاكل التي ينطوي عليها ذلك وما يترتب على إعادة بنائها أو استحالة ترميمها.